الباحث الجزائري عبد المجيد بوقربة:

كيف يجب أن ننتظم في التراث لكي نحقق الحداثة؟

الجزائر ـ «القدس العربي»:

عبد المجيد بوقربة باحث جزائري في قضايا التراث والحداثة في الفكر العربي المعاصر، عصامي التكوين، وهذا ربما ما يجعله الى حد بعيد حرا في تفكيراته، وغير مرتبط بالمدرسية في قراءاته، أصدر كتابه الأول عن دار الطليعة ببيروت بعنوان «الحداثة والتراث» كما أصدر مؤخرا كتابه الثاني «نحن والدولة» وشارك في الكتب الجماعية التي يصدرها مركز دراسات الوحدة العربية، حول العرب والديمقراطية، ويحضر كتابا حول التأويل واشكالاته في التراث العربي.

■ ما هي الأسباب والعوامل التي دفعتك للاهتمام بالمجال الفكري بشكل عام وقضايا التراث بشكل خاص؟

■ **الحقيقة أن مسألة الاهتمام بالتراث بالنسبة اليّ تعود الى بداية تكويني الثقافي فقد شكل وجود مكتبة تراثية في بيت الوالد عندي الهاجس الأول الذي شرعت على ضوئه في قراءة واكتشاف التراث فكانت هذه المرحلة عبارة عن تحصيل وجمع لمعلومات ومعطيات تدور كلها حول التراث في مختلف مستوياته وأبعاده سواء من الناحية التاريخية أو النصوصية أو من ناحية تراجم اعلامه ...الخ، ثم كانت المرحلة الثانية في مسار اهتمامي بالتراث، وهي المرحلة التي أصبح فيها التراث يكتسي في نظري بعدا اشكاليا له ارتباطاته بقضايا العصر الذي نعيش فيه واعني بها قضية الهوية والتنمية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية والموقف من الحداثة.**

■ كان كتابك الأول حول الحداثة والتراث مساءلة في قضايا مركزية في الفكر العربي المعاصر. ما هي نوعية الأسئلة التي شغلتك؟ وكيف يمكن تجاوز ثنائية الحداثة والتراث في رأيك؟

■ **يمكن تلخيص القضايا التي حاولت معالجتها في كتابي «الحداثة والتراث» الصادر عن دار الطليعة بيروت سنة 1993 في ثلاثة نقط هي:**

أ ـ لماذا ظل الفكر العربي المعاصر منذ أوائل القرن التاسع عشر، يعيش اشكالية النهضة على أساس أنها مسألة اختيار بين نموذجين حضاريين متعارضين، يعبر عنها بعناوين وشعارات مختلفة تارة بالأصالة والمعاصرة وتارة ثانية بالحداثة والتراث وتارة ثالثة بالتراث وتحديات العصر.

ب ـ لماذا لم تنجح النهضة العربية الحديثة في تحقيق التجاوز النهضوي للماضي بطريقة ديالكتيكية نقدية من جهة، وفي استيعاب القيم الحقيقية للحداثة التي ظلت مفاهيمها تشكل بالنسبة لمجتمعاتنا حدودا نفسية وذهنية اخطر بكثير من الحدود التي اصطلحنا على تسميتها بالحدود القطرية حدودا جعلتنا عاجزين عن التكيف مع الأدوات والمفاتيح الأساسية للعصر الحديث من حيث مفهومات المجتمع المدني، المنهج العلمي، العقلانية، الدولة الحديثة، الديمقراطية .... الخ وفي نفس الوقت عرضي لاختلالات وأزمات ونكسات وردات بسبب وضعية اللاحسم التاريخي والسياسي والحضاري في الخيارات الاجتماعية، مابين الاستبداد والحرية، الدين و الدولة، القومية والقطرية .....الخ.

ج ـ إن مشروع النهضة العربية الحديثة لم يكن في الأصل نتاج تطور اجتماعي داخلي ينطوي على خيار محدد و ثابت ومجمع عليه، وانما كان في الواقع تعبيرا عن صدمة عنيفة شهدتها المجتمعات العربية بسبب المواجهة التاريخية غير المتكافئة بين أوروبا والعالم العربي خلال حملة نابليون بونابرت على مصر سنة 1798, هذه الصدمة تركت في الوعي العربي حالة من الارتباك والحيرة، هي التي تفسر في نظري وضعية التجاذب الحضاري بين التراثي والعصري التي لا يزال يتخبط فيها العرب منذ دخولهم العصر الحديث. هذه هي ابرز الاشكاليات التي حاولت معالجتها في كتابي «الحداثة والتراث»، ويبقى الشق الأخير من سؤلكم وهو: كيف يمكن تجاوز ثنائية الحداثة والتراث في الفكر العربي المعاصر؟

ان المخرج الوحيد من ثنائية الحداثة والتراث في الفكر العربي المعاصر يتطلب في نظري التحرر أولا من المضامين الايديولوجية التي تحملها في أذهاننا اليوم هاتان الكلمتان، وذلك عن طريق تشريحهما تشريحاً دقيقاً يخلصهما من عناصر التزييف التي تجعلهما يبدوان على صعيد الواقع الثقافي العربي في صورة زوج تقابلي بين التراث والحداثة أو الأصالة والمعاصرة، مما يجعل المشكل الذي يعانيه الفكر هو مشكل الاختيار بين الأمرين: إما الحداثة وإما التراث؟ والحقيقة أن هذا المشكل هو مشكل زائف لأنه نتاج تصور خاطئ لكلا المفهومين الحداثة والتراث، ولتجاوز هذه الثنائية يجب البدء بتصحيح هذين المفهومين، بحيث يغدو الرهان المطروح بإلحاح وجدية أمام مجتمعاتنا في لحظة التحول الراهنة هو: كيف نرسخ كيان الدولة أولا؟ ثم كيف نقوم بتغييرها بالديمقراطية ثانيا؟

اعتقد أن قراءة الجابري للتراث تشكل نقلة نوعية في الساحة الثقافية العربية المعاصرة، فهي قد خطت بالتراث خطوة هامة من مجال التحليل الايديولوجي الى مجال الدراسة الابستمولوجية التي تعد سمة من سمات البحث العلمي الحديث ومكسباً من مكتسباته المنهجية. ومن مزايا المنهج الابستمولوجي انه يتعدى التحليل الايديولوجي القائم على فحص الأفكار والتصورات أي المعارف و النظريات والمذاهب، الى فحص الانتاج المعرفي وآليات التفكير. والجابري باستخدامه لهذا المنهج الابستمولوجي في مقاربته للتراث العربي الاسلامي، فانه في الحقيقة قد دشن منحى جديداً في مجال البحث التراثي لم تألفه الساحة الثقافية العربية من قبل. كما انه انشأ خطاباً تكشف عن لغة جديدة وطريقة مغايرة في الطرح والمعالجة، لذلك أستطيع التأكيد على أن القراءة المستندة الى المنهج الابستمولوجي تظل في اعتقادي لحد الآن هي الطريقة الوحيدة الناجعة في مجال التعامل مع التراث.

■ ما هي في تصورك الطريقة الحيوية لاعادة بعث الاجتهاد من جديد خاصة وان الاسلام صار يقرأ بصورة حرفية مع التوجهات السلفية السائدة؟ وهل يمكن تحديث القراءة للاسلام راهناً؟

■ **تحديث القراءة للاسلام أو فتح باب الاجتهاد، شعار طرح ولا يزال يطرح من قبل الرافضين للتغريب، الداعين الى التجديد من داخل منظومة الفكر الاسلامي منذ بداية النهضة العربية الحديثة في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي، وبالرغم من مرور كل هذه السنوات، فان العالم الاسلامي لم يشهد الى حد الساعة ظهور فقهاء مجددين تتوافر فيهم الشروط الضرورية للممارسة الاجتهادية بالكيفية الصحيحة التي تقتضيها متطلبات العصر، ذلك أن انغلاق باب الاجتهاد وسيطرة روح التقليد والجمود على مدارس الفقه الاسلامي، ترجع في نظري الى أن الاجتهاد بالأسلوب القديم قد استنفد جميع امكانيات التطور الذاتي ولم يعد هناك مجال للمزيد من الاجتهاد بأسلوب القياس البياني الذي ارسى قواعده علماء الأصول وبناء عليه فان أي دعوة للتجديد داخل الفكر الاسلامي، اذا لم تبدأ بتغيير القواعد الابستمولوجية القديمة بقواعد جديدة أكثر مواكبة لظروف العصر، فانها ستظل مجرد محاولة يائسة لا فائدة ترجى منها. وهذا ما نقوله الآن هو فعلا ما سبق أن أعلنه منذ قرون احد ابرز علماء الأصول في الأندلس الامام الشاطبي الفقيه المالكي المتوفى سنة 790 هـ، الذي دعا الى تأسيس فقه جديد يقوم على مراعاة مقاصد الشريعة، أي اعتبار المصلحة هي المرجع الأول والأخير عند تطبيق أحكام الشريعة.**

■ في كتابك الثاني قاربت مسألة الدولة والديمقراطية، لماذا هذه المواضيع حالياً؟

■ **لقد سبق أن بينت في كتابي (نحن والدولة) الصادر سنة 2005 عن منشورات الاختلاف أن الرهان المطروح بإلحاح و جدية امام مجتمعاتنا في لحظة التحول الراهنة هو: كيف نرسخ كيان الدولة أولا؟ ثم كيف نقوم بتغييرها بالديمقراطية ثانيا؟ حيث أكدت أن الاخلال بأحد شرطي هذا الرهان، شرط بناء الدولة وشرط تغييرها بالديمقراطية، هو الذي يهيئ الأجواء في مجتمعاتنا الى الارتداد الى أسباب الفتنة والخلاف التي لا يوقفها الا العنف والاستبداد، كما حدث في الجزائر، فنخسر بالتالي رهان الديمقراطية اليوم كما خسر أسلافنا رهان الشورى بالأمس.**

■ على ماذا تشتغل راهنا؟ وهل تعتقد في اعادة قراءة الماضي حلا، أم في التحرر منه تماماً، أم في البحث عن أسئلة مرتبطة بوضعنا الحالي؟

■ **حاليا اشتغل بالقراءة في نص ألف ليلة وليلة، فهو يمثل في اعتقادي أحسن وسيلة للولوج الى المناطق العاتمة في العقل العربي لتسليط الضوء عليها من خلال الكشف عن الهواجس التي تستبطن كيان هذا العقل، هواجس الجنس والدين والمرأة والقدر والسلطة. وهي قضايا لا تزال تحتل مركز الجدل في الراهن العربي.**

■ هل ترى وجود لحرك كتابة فكرية في الجزائر أم لا؟

■ **من وجهة نظري تفتقر الجزائر لحركة كتابة فكرية تؤشر لحضور انتلجانسيا جزائرية حديثة، تعمل كمجموعة اجتماعية منسجمة ومؤثرة تقوم بالانتاج المعرفي والابداع العلمي وتملك ميادين عملها ومؤسساتها المادية وأجهزتها الثقافية المستقلة وتعبر عن مواقفها الفكرية والأدبية والفنية من قضايا الدين والهوية والديمقراطية، وتطرح رؤاها النظرية لهذه القضايا، انطلاقا من حاضرها وخصوصية مجتمعها دون ارتهان أو تبعية لقطبي المركز المزدوج أوروبا بالنسبة للفرونكفونيين والمشرق العربي بالنسبة للمعربين حيث أن لهذا الغياب أسبابه التاريخية التي يرجع بعضها الى الماضي أي الى ما عانته الجزائر عبر تاريخها الطويل من اختلاط و تنوع و اختلاف المراجع الاثنية و الدينية واللغوية ، بينما يعود بعضها الآخر الى ظروف تكون فئة المثقفين أنفسهم في الجزائر وطبيعة علاقتهم بالسلطة وعجزهم الدائم عن التبلور كنخبة فكرية ومستقلة بامكانها أن تلعب دوراً مؤثراً في المجال الاجتماعي.**

■ ما هي مشاريعك المستقبلية؟

■ **أستطيع تلخيص مشاريعي الثقافية في المستقبل القريب في سؤال واحد هو: لماذا لم تقم الابستمولوجية السنية عبر التاريخ الاسلامي بتقنين التأويل ضمن نظرية أصولة سنية، كما فعلت مع الاجتهاد، بحيث تتجاوز أزمة الأسس التي شهدها علم الكلام، بنفس الكيفية التي تجاوزت بها أزمة الأسس في الفقه.**

التقاه: بشير مفتي

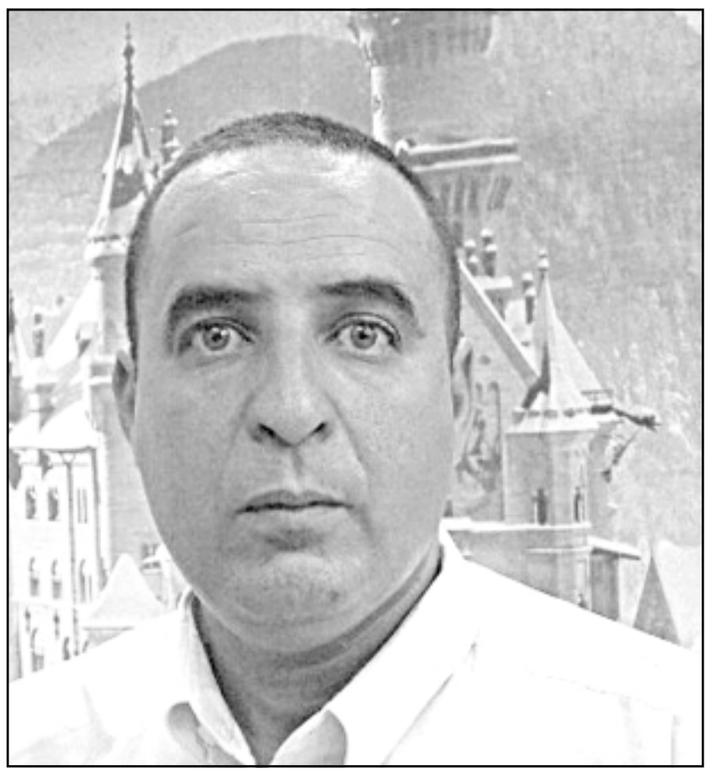

عبد المجيد بوقربة (القدس العربي)

ابن خلدون بيننا:

في الحاجة إلى الخيانة!

عبد الصمد الكباص*

■ نتساءل اليوم عن حضور ابن خلدون في الفكر المغربي المعاصر ونسعى للاحتفال به ونوثق لغيابه ونكتب عن آثاره وما خلفه من أفكار، ونحاول جاهدين أن نقرب بينه وبين أسئلة عصرنا. لكن ذلك أبدا لن يكون مفيدا لا لنا ولا لابن خلدون طالما أننا لم نحدد بعد معنى الاحتفاء به ودلالة التكريم المراد له. فقد قال نيتشه ذات يوم «إن شعبا ما لم يكن يتميز برجاله العظام، بل بالطريقة التي كان يكرمهم بها ويعترف بفضلهم» (1). ونحن إذ نسائل موقعنا من ابن خلدون حيث ترتسم خارطة من الغياب وتتوغل أشكالها في لُبس يقدم كوضوح تام، نجد أنفسنا أمام تاريخ من الترحال تنقل فيه ابن خلدون بحفاوة عقيمة بين الكتب والدراسات والأبحاث و الأطروحات التي ترسبت خلال القرن العشرين بالمغرب لكن كل ذلك لم يخول لصاحب المقدمة أن يولد سؤالا جديدا في الفكر المغربي المعاصر ولا أن ينتج إشكالية متفردة تصوغ حيرة تجربتنا التاريخية وتفتح أفقا جديدا للفكر.

ظل السؤال كما قال بلانشو رغبة الفكر(2) والإجابة شقاءه. ومن ثمة لم يكن ملائما البحث عن ابن خلدون كجواب جاهز احتفظ الزمان به وصانه من لوثة التغيير. بل كسؤال شقي تفجره المسافة التي تفصلنا عنه، تلك المسافة التي صاغتها حركة المجرى التي يتحدد فيها العالم بكامله كاحتمال حدوث. ولا يعمل تدخل الفكر إلا على مضاعفتها ومفاقمة نتائجها غير المنتظرة. ما تكرس من خلال حضور ابن خلدون في الفكر المغربي هو ترسب أرضية تسبق فيها الأجوبة الأسئلة وتتزاحم فيها الأحكام الفاقدة لموضوعها. وهكذا فمنذ دراسة طه حسين تحول ابن خلدون إلى مرآة عتيقة يُعاد في وجهها المليء بالخدوش اكتشافُ وجه الناظر إليها. فالماركسي يعثر فيها على ماركس الذي نطق عربيا قبل كارل ماركس الألماني بمئات السنين. ووجد فيه وضعيو السوسيولوجيا إميل دوركهايم أو أوغست كومت المغتربين عن زمانهما والمشردين خارج عالمهما. وأعاد فيه البعض تشكيل صورة اللص الذي يسطو في غفلة دامت بعَدْهُ لقرون طويلة على ميراث الآخرين، وفي كل هذا غاب ابن خلدون كأفق إشكالي وكإجراء توليدي لحيرة جديدة ولسؤال فعال.

إننا نستغرب لماذا عندما عاد جيل دولوز مثلا إلى اسبينوزا كان ذلك مناسبة لإبداع فلسفة جديدة لا تربطها باسبينوزا نفسه سوى الخيانة فتحول بفضل ذلك إلى ابتكار غير مسبوق في التاريخ بمفاهيم جديدة تبدعه كأفق مستقبلي. في حين لم تكن العودة لدى المغاربة إلى ابن خلدون الذي قال عنه توينبي ذات مرة أنه بلور أعظم فلسفة للتاريخ، سوى مضاعفة لتحنيطه وتحويله إلى احتياطي من الاستشهادات التي تزيد في عدد سطور هذا الكتاب وتنفخ في صفحات ذاك البحث، وكذلك كان شأن ابن رشد وابن عربي.

إن العودة في الفكر لا تعني بالضرورة الاستعادة بل تفتح أفقا للمغايرة، إنها تنسج اللقاء في الزمان الذي لن يكون سوى مغامرة الانفتاح على الآخر يتحول فيه المعنى إلى تجربة اللامعنى، ففي المغامرة تكون النتائج غير محسومة سلفا. وتصبح كل علاقة للألفة وجها للغربة. ويفترض كل ذلك جرأة أن تتحمل العالم بكامله كحركة حية للسؤال الذي هو كما يقول بلانشو الكلام الذي يكتمل عندما يفصح عن نقصه وعدم اكتماله (3) ويضع الإثبات في الفراغ فيكسبه غنى وثراء.

انطلاقا من ذلك فالعودة إلى صاحب المقدمة ليست بالضرورة رحلة زائر المقبرة يقف على الشاهدة ويبكي ثم ينصرف، ولا نظرة المتملي في نصب تذكاري عظيم ثابت في مكانه يختزن حقيقته المضمونة ودلالته المخبوءة ويذكر بها، بل هي بالأحرى لقاء في غيرية الزمان وانخراط في حركيته المنتجة التي لا تحفظ بقدر ما تتلف.

لقد كان نيتشه ثاقب النظر عندما نبهنا إلى ضرورة الاحتياط من تصور المكان مجالا مغلقا تجري عليه معركة، أو مستوى يقف فيه الخصوم على قدم المساواة، «إنه بالأحرى اللامكان، مسافة محض وشاهد على أن الخصوم لا ينتمون إلى فضاء واحد، فلا أحد قادر على أن يجعل من الانبجاس مجدا، إنه ينشأ دائما من خلال فجوة» (4) فكم كان ابن خلدون ميتا بيننا ونحن نحاول أن نبعثه حيا بأفكار محنطة. فالفكر العظيم هو الذي يخلق ما يتجاوزه. وربما كانت قوة أفلاطون لا تعود إلى صلابة صموده بقدر ما ترجع إلى قوة من تنكروا له فحولوه إلى طاقة متحركة لإبداع الممكن وكذلك فابن خلدون ليس في حاجة إلى وفاء الأصدقاء وإنما لوقاحة المتنكرين..

ذات مرة قال موريس بلانشو «نحن نعلم جديا أنه عندما يموت شخص بالقرب منا وإن كنا لا نبالي به تماما، فهو بالنسبة لنا في تلك اللحظة، الآخر إلى الأبد،» (5). آية آخرية إذن يكتشفها الفكر المغربي المعاصر في ابن خلدون وأي نوع من المطالبة يرسخها موته : شيء مفارق حقا فعوض عن أن يفتح أسئلة المستقبل وظف لإعادة إنتاج أسئلة الماضي. يمكننا أن نتساءل اليوم أي موقع لابن خلدون ضمن إشكاليات عصرنا الذي أضحى فيه الإنسان كائنا انتهى زمانه كما أكد ذلك الأستاذ عبد العزيز بومسهولي في كتابه «نهاية الأخلاق»؟ أي فجوة سيفتحها في نسيج أوهامنا المبعثر وأي شكل للصمت سيكشفه في تاريخنا؟ فأن ندع التاريخ يتحدث معناه أن نستمع لكلامه كإضافة وليس كتكرار.

في النص الذي ترجمه الأستاذ حسن أوزال في كتابه «حكمة الحداثيين» يتساءل الفيلسوف الفرنسي أندريه كومت سبونفيل: «ما جدوى التفكير إذن، إذا كان من أجل حياة بئيسة؟» فما هو مطلوب هو أن نتعلم أن نموت و أن نتعلم أن نحيا. وهذه هي الفلسفة ذاتها التي لم تصادفها إقامة ابن خلدون بيننا بعد سفره الطويل عنا، «إنك لا تموت جراء ما أنت به مصاب من مرض بل جراء ما أنت به تحيا» يقول سبونفيل. فضيافة ابن خلدون كشفت محنة فكرنا الذي ضل غايته ولم يعد يجد في الحياة سبيلا مبهجا «كن واثقا من نفسك : فالحقيقة ليست منتهى الطريق، بل هي الطريق ذاته» (7).

أن نكرم ابن خلدون معناه أن نتعلم جيدا كيف ننساه وليس كيف نتذكره، أن نتلف معالمه لا أن نحفظها. أن نخونه بملء ما استطعنا من الجرأة لا أن نظل أوفياء له، أن نقنعه بصمته لا أن نردد كلامه، أن نكف عن اعتباره درسا يلقن في حجرة مدرسة أو وثيقة محفوظة في أرشيف. أن نعيد الموت إليه حياة ونقدس الخطأ سبيلا إليه والخيانة تقربا منه.. إذاك فقط سينتظرنا ابن خلدون أفقا مستقبليا مشعا.. ذاك الذي لم يكن أبدا واردا في أي تاريخ أو مكتبة أو لغة.

---

* باحث من المغرب

هوامش :

1ـ نيتشه : الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي تعريب سهيل القش، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 2005، ص 42.

2ـ موريس بلانشو : أسئلة الكتابة ترجمة نعيمة بن عبد العالي وعبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال للنشر الدار البيضاء، 2004، ص 11ـ 12.

3ـ موريس بلانشو : نفسه

4ـ ميشيل فوكو : «نيتشه الجينالوجيا والتاريخ» ترجمة عبد السلام بن عبد العالي.

5ـ موريس بلانشو : نفسه، ص 49.

6ـ حسن أوزال : «حكمة الحداثيين : أنطولوجيا الحاضر» ص، 19.

7ـ نفسه ص 27.

قـــص

نعـــي

بيومي قنديل*

■ الخريف عندنا هو ربيع كل الدنيا، ففي خريفنا يعتدل الجو وتسكن الهواء طراوة سخية، وخصوصا بعد منتصف الليل. وكان صاحبنا يسير عائدا بعد أن صفصفت الشوارع، دون أن يدري إلى أين حملته قدماه. كانت جنازة «الزعيم الملهم» التي بدأت منذ الصباح الباكر، رهيبة قدر خبراء في وقت لاحق عدد الذين شاركوا فيها بخمسة ملايين نفس. وسارت الجنازة حيثما شاءت لا حيثما يشاء المشاركون، وكان صاحبنا رقما منهم. تطلع إلى ساعة الميدان. خرجت من فمه صفارة طويلة. وبينما كان يتطلع حواليه ليعرف أين هو بالضبط كي يبدأ رحلة العودة إلى بيته في «عزبة الصعايدة» قرب شارع «ترعة السواحل» في «إمبابة» التي كانت للعاصمة «الكاهرا» ما كانته مصر للإمبراطورية الرومانية، وجد صاحبنا نفسه أمام جريدة «الجورنال». هنا طرأت على ذهنه الفكرة. وبينما كان يدير عينيه في ضباب الليل الذي تحاول فوانيس الحكومة مقاومته بنجاح أشبه بنجاح خطتها الخمسية، وجد السجادة العجمي الحمراء اللون المفروشة على السلالم الأمامية تنادي قدميه.

قدم صاحبنا بطاقته الشخصية ـ كما تقضي التعليمات المعروفة للجميع ـ إلى الموظف المختص الذي نهض من جلسته بين الصحو واليقظة كي يقف خلف صندوقه الزجاجي. نظر الموظف المختص بامعان في وجه صاحبنا وقارنه بهدوء مستريب، لم يعد يثير منذ وقت طويل أي احتجاج، بالصورة التي تحملها البطاقة الشخصية. ناوله الموظف المختص بتردد مكتوم النموذج المطبوع سلفا كي يملأه.

أعاد صاحبنا النموذج بعد ملئه إلى الموظف المختص الذي ضبط نظارته على أنفه، وأخذ يعد كلمات الإعلان الذي يريد هذا المواطن الصالح كما وصف نفسه أن يضعه «باكر» في صفحات الجريدة. أعاد الموظف المختص ضبط نظارته على أنفه. وأعاد إحصاء الكلمات ثم أمسك بنظارته كي يثبتها على أنفه بيد وأخذ يحسب من جديد مستعينا بقلمه الذي أمسك به باليد الأخرى عدد الكلمات أو هكذا بدا أنه يفعل. أخرج صاحبنا محفظته استعدادا لدفع ثمن الإعلان الذي خطر على باله دون سابق إمعان نظر أن ينشره باسمه. اختلس الموظف المختص نظرة من جنب عينه إلى صاحبنا. توقف القلم في يده فوق السطر الثاني في النموذج المعد للنشر.

رمى الموظف المختص الذي كان بعض النوم لا يزال عالقا بجفنيه، رأسه إلى الجهة اليسرى. نسيها هناك. أحدث صاحبنا صوتا بقدميه في أرضية الحجرة. أعاد الموظف المختص رأسه إلى وضعها السابق أمام واجهة الصندوق الزجاجي.

حرك صاحبنا يده اليمنى حركة دائرية استنهاضا للموظف المختص الذي راح يتطلع يمنة ويسرة وسط هدوء الليل وسكونه. دفع الموظف المختص يده إلى الأمام لصاحبنا كي يستريح على أحد الكراسي الملاصقة للحائط في مواجهة الصندوق الزجاجي. تطلع صاحبنا إلى الموظف المختص مستغربا. لم يجد الموظف المختص مناصاً من صوغ ما يريد في ألفاظ حاسمة وإن حفها أدب وافر:

ـ إتفضل سيادتك إستريح دقيقة واحدة من فضلك!

كرر صاحبنا طلب الموظف المختص كلمة كلمة بنفس نبرة الموظف المختص ولو أن كلماته خرجت مبطنة بدرجة من الاستغراب:

ـ يتفضل سيادتي يستريح دقيقة واحدة!

ثم ارتفع صوته حادا متسائلا:

ـ ليه؟

و قال متضاحكا:

ـ ح تعتقلوني؟

كان الموظف المختص مشغولاً في هذه الأثناء في المكالمة التليفونية التي هداه تفكيره إلى إجرائها مع رئيسه المباشر مع أن الوقت كان متأخراً بل ومتأخراً بما يوجب في ظروف أخرى، فاصلاً من التوبيخ. أرسل صاحبنا أذنيه كي يتسمَّع ما يدور من حديث. سمع صاحبنا الموظف المختص يقول: هل يجوز.. وعندئذ أحس الموظف المختص بأذني صاحبنا تقتسمان الحديث مع أذنيه فاستدار كي يعطي صاحبنا ظهره ونجح فيما هدف إليه.

وضع الموظف المختص سماعة التليفون. نهض صاحبنا متململاً. توجه إليه. وقبل أن يفتح فمه بكلمة هداه الموظف المختص بقمعي أصابعه العشرة:

ـ إتفضل سيادتك دقيقة واحدة.

ـ ليه فيه إيه؟

ـ مافيش أي حاجة وحشة بإذن الله، بس إتفضل!

عاد صاحبنا إلى الجلوس. وهو يقول:

ـ وآدي كمان قعدة!

مرت دقائق طويلة. رفع صاحبنا عينيه إلى الموظف المختص. التقت العينان. رد الموظف المختص على السؤال الذي توقعه من صاحبنا، موضحاً:

ـ بيصحي المدير العام.

ـ مين دا؟

ـ رئيسي المباشر.

ـ ليه بقا؟

أحس الموظف المختص أنه كشف أكثر مما ينبغي لشخص مجهول. أجاب:

ـ ما ليه ش.

وبعد قليل أوضح:

ـ ما هو انا ما اقدرش أتحمل المسؤولية دي لوحدي.

رن جرس التليفون. أسرع الموظف المختص إلى السماعة. هز رأسه قائلاً:

ـ أيوا يا افندم معاي.

وبعد قليل أضاف:

ـ حاضر. ح أخليها معاي.

لقط صاحبنا بصورة ضبابية عما يدور الحديث. نهض متحمساً. انطلقت الكلمات من فمه مستقيمة سريعة :

ـ تسمح لي بالبطاقة؟

ـ بطاقة إيه؟

ـ حلوة دي. البطاقة الشخصية بتاعتي. غيرَّت رأيي. موش ح اعمل إعلانات عندكو. خليني أروح.

رد الموظف المختص:

ـ ح تروح سيادتك إن شاء الله طالما موقفك كان سليم.

ـ والبطاقة؟

ـ والبطاقة ح تاخدها. هو انا ح اعمل بها إيه؟

ـ إمتى؟

ـ حال ن

ـ يعني إيه «حال ن» دي؟

ـ يا أستاذ المدير العام بيتصل برئيس التحرير عشان يعرف يجوز ولا ما يجوزشي.

ـ إفرض قال له ما يجوزشي وإديني البطاقة.

ـ فال الله ولا فالك يا شيخ: ح تبقا المسألة دخلت نفق تاني؟

رن جرس التليفون. تعلقت عينا صاحبنا بما يدور. رفع الموظف المختص الذي بدا أكثر يقظة سماعة التليفون. وقع شدقه منه. أكد مطمئنا:

ـ لأ يا افندم ما مشي ش، حاضر. حاضر.

انتفض صاحبنا واقفا. اندفع إلى الموظف المختص:

ـ تعرف تديني البطاقة بتاعتي عشان أمشي.

رد الموظف المختص:

ـ أنا خدت تعليمات خلاص.

ـ يعني إيه؟

ـ يعني بقيت عبد زيي زيك.

ـ يعني أنا دا الوقت ما اقدرش أمشي؟

ـ يا أستاذ ح تمشي. بس كله بوقته.

و اتكأ على عكاز الغيب وقال:

ـ ما كانش يقدر يخلق الدنيا في لحظة واحدة!

ـ دا انا معتقل بقا؟

ـ يا أستاذ إحنا جريدة.

ـ يعني إيه دي؟

ـ يعني إحنا ما بنعتقلش حد.

ـ شوف إسمع ح تديني البطاقة يعني ح تديني البطاقة.

يهم صاحبنا باقتحام الصندوق الزجاجي.

يرفع الموظف المختص أصبع السبابة في وجهه برباطة جأش موظف تدعم التعليمات عموده الفقري:

ـ ما تخلينيش أعمل حاجة أنا موش عايز أعملها.

ـ ح تعمل إيه؟

ـ يا أستاذ كلها دقايق وكل من هو يروح لحال سبيله.

ـ فيه إيه أحب أفهم؟

ـ رئيس التحرير بيتصل بالوزير.

ـ الوزير سوا؟

و بينما كان صاحبنا يلتفت إلى يساره، دخل إلى الحجرة نفران، أحدهما قصير والآخر طويل.

عاد صاحبنا إلى الجلوس وهو يمصمص شفتيه. جلس أحد النفرين إلى يمينه وجلس الآخر إلى يساره.

أشاح صاحبنا بيديه. ضحك بلا رواء. خرجت ضحكته ميتة. قال:

ـ ما عندكش بطانية؟

طقطق الموظف المختص. أوضح صاحبنا بصوت جاف:

ـ أيوا لحد سيادة الوزير ما يصحا م النوم!

رن جرس التليفون. رفع الموظف المختص السماعة. تطلع نحو صاحبنا. لملم عينيه سريعا عنه. رد:

ـ لا يا افندم. إزاي أسيبه يمشي؟

في هذه اللحظة كانت قد اختمرت في رأس صاحبنا فكرة أن يستعوض ربه في البطاقة التي كان من الممكن أن تنشل أيضا في زحمة الجنازة. هم بالقيام. وجد يدين، واحدة من على يساره والأخرى من على يمينه تدوسان على كتفيه كي تلزماه بالجلوس. هنا انتبه إلى أن اللذين دخلا قبل قليل يلبسان زيا موحدا، وأنهما ليسا زبونين مثله.

شرح الطويل منهما:

ـ ما حدش مننا يقدر يسيبك تمشي.

ـ ليه؟

قال الطويل:

ـ موش جايز يكون فيه هدف إستراتيجي خطير ورا نشر..

خطف القصير خيط الحديث:

ـ ولا عدم نشره!

تدخَّل الموظف المختص:

ـ على أي حال رئيس الوزارة ح يرد حال ن بال ن.

ـ رئيس الوزارة؟!؟

أكمل القصير:

ـ وفي النهاية ح نمشي كلنا.

أخذ صاحبنا يتلفت يمنة ويسرة كفلاح غرقت زرعته.

تأكد له الآن أن الشيطان وحده هو الذي دس هذه الفكرة في رأسه على حين غفلة منه.

رن جرس التليفون. رفع الموظف المختص السماعة. قام واقفا وراء الصندوق الزجاجي.

رد:

ـ جوم لوحدهم يا افندم خلاص. يستحيل.

طبع ن طبع ن.

رمى الموظف المختص عنقه على كتفه كجمل «يطلب الحلال». أعلن:

ـ السؤال وصل الرياسة؟

زعق صاحبنا ودفع صدره إلى الأمام تحت ضغط اليدين اللتين تدوسان على كتفيه:

ـ رياسة إيه؟

عاد صاحبنا، في تأن بالغ، بصدره في كرسيه إلى الوراء.

بنفس الايقاع خففت اليدان الثقيلتان ضغطهما على كتفيه.

أسند الموظف المختص رأسه إلى يديه على مكتبه خلف الصندوق الزجاجي. استمر في جلسته مشلولاً لساناً وأطرافاً، بل مسخوطاً حجراً.

تثاءب الطويل. رمق القصير من جنب عينه. تحرك من وضع الاسترخاء إلى طرف الكرسي. كتم القصير تثاؤبه بيده في فمه.

رن جرس التليفون. رفع الموظف المختص السماعة. قال:

ـ حاضر.

وضع السماعة. اشرأب الثلاثة: رجلا الأمن وصاحبنا في جلستهم نحو الموظف المختص. رفع رأسه. صادت عيناه شعاعاً أرجوانياً. قطب جبينه للفجر الذي حضر باسماً دون سبب أمام مبنى الجريدة مما قد يحمله مسؤولية أدبية أمام الثلاثة عن تأخيرهم على هذا النحو حتى طلوع النهار. لكنه هز كتفيه عندما تذكر أن وضعه ليس أفضل كثيراً من وضعهم. عاد كي يرفرف بذراعيه كفرخ صغير أنعشته فكرة تسليم جناحيه للريح. أعلن بصوت رصاصي جاد:

ـ خلاص.

صاح الثلاثة:

ـ هو إيه؟

ـ خلاص السؤال ح يلاقي جوابه.

ـ إزاي؟

رد الموظف المختص:

ـ نائب الرئيس خد الحرس بتاعه، وراح لـ «الزعيم الملهم» الراحل للتو في مقبرته على إيدك الشمال وانت رايح، يصحوه يسألوه: هل يجوز ولا ما يجوزشي لجريدة يومية تنشر نعي لفخامتك بعد ما توفيت بـ24ساعة إلى «جماهير الأمة».

---
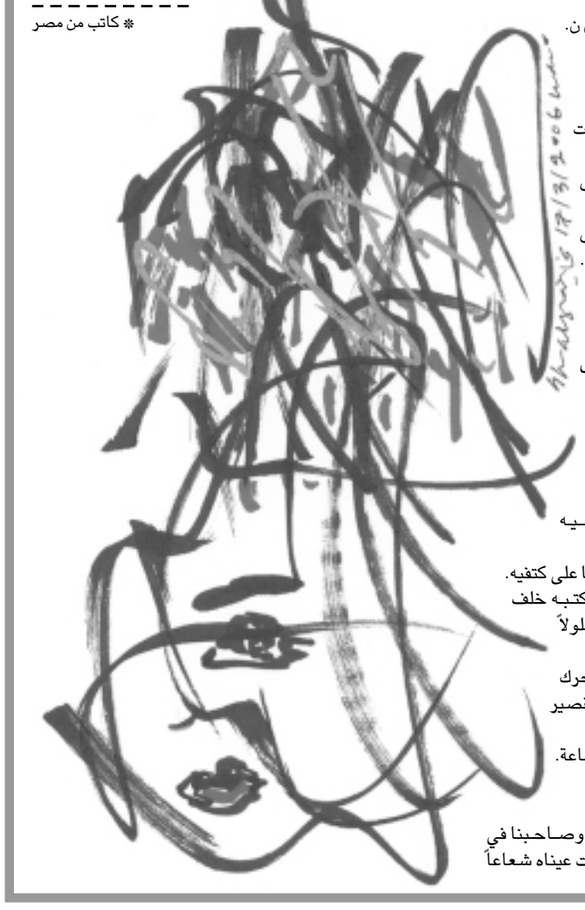
* كاتب من مصر